يا سيد الحزن

قصة: أميمة عز الدين/ مصر

التاريخ السري للألم مبتداه القلب ومنتهاه قبر مغلق وأمنيات مشتهاة وأحلام لا تتحقق ومواويل للصبر نرددها حين نخلو لأنفسنا. الموت غفوة طويلة لا ندرى قوانينها ولا نختبر قسوتها. أشفق علي صديقي الصغير وهو يسعى كل يوم للموت بنفس راضية مطمئنة، جيوبه مثقلة بالحجارة يرمى بها كلما كان عائدا من المدرسة أو متجولا بساحات الخليل، رغم سنواته العشر لكنه لم يجفل يوما من الموت، يشبه حبيبي الذي أزور قبره كل يوم، كان مثله مشاغبا ثائرا لم يتوارَ خلف حائط مثلهم أبدا،يذكرني أيضا بأخي الذي لم يخشَ يوما رصاصهم الغادر حتى سقط بين يدي، وقتها لم أدر ماذا أفعل وقد تحجرت الدموع كملح أبيض ناعم بمقلتي، وهو يجود بروحه، أتأمل الدم النازف من صدره تتشكل خارطة لوطني والقدس يقبع في قلبي بأقصاه وكنيسة القيامة.

أتذكره وهو قائم يصلي بالليل في خشوع، يتلو القرآن ويرتله ترتيلا ويترقّى بالقراءة حتى أظنه ملكا من ملائكة السماء وفى النهار يتضرج وجهه بالدم الغاضب ويرفض التفتيش في نقاطهم حتى أصابهم الضجر من إصراره وعنفوانه. ورآه شباب كثر، الغضب يبلغ حناجرهم وهم ذاهبون لأشغالهم وتلك المرأة التي تمسك يد طفلها لتعبر الحاجز للناحية الأخرى من الخليل والعجوز الذي يتوكأ على عصاه فيأتي أحدهم من وراء ظهره يلكزه بكعب بندقيته حتى كاد أن ينكفئ على وجهه لولا تسانده على كتفه.

أناجي حبيبي في غيبته ورقدته:

يا سيد الحزن: تشتتت روحك لما أسرفت في الغياب واتخذت من حزنك خليلا، لا تنظر للعالم وأنت قابع تجتر ذكرياتك وتوبخ الآخرين لأنهم لم يشاركوك الحزن رغم أن أعينهم ابيضت من البكاء عليك.

أهرول في الطرقات والحواري العتيقة، أهذي بقوة في نشيج حزين:

لا تحلوا دم عاشق في الأشهر الحرم ولا في غيرها.

أيها الحزين الوحيد، لا تسكن بعيدا عن وطني....يوما ما ستمطر ويغسلنا المطر من أدراننا..عد وأعطني سببا قويا للحياة.

أناجيه مثل أم مكلومة صابرة قائلة:

لا تحزن يا صغيري، فأنت تسكن قلب أمك، ولا يضيرك ضجيج العالم، أو عبثه ودعني أحكي لك حكاية قبل النوم، لتغفو قرير العين فقلبي نافذة لعينيك على المدى....

فأجمل الأشياء لم تأت بعد أو أتت في غير قطافها

ولا تتفلت مني فأنا كامرأة عجوز، وأنت مازلت فتيا تراودك القصائد والصغيرات وأنت لم تذق جمر النار.

عدّودتي تسكن قلبي، تقفز طواعية على لساني وأنا أبكي حبيبي:

ليه يا بنفسج بتبهج وأنت زهر حزين.

كنت أواريه ثرى الغياب

لما طالت غيبته ظللت أبحث عنه، حتى أخبرني صديقه أنه رآه والجنود الحمقى يجرونه من ملابسه وقد قيدوه بالأصفاد وأودعوه سجنا انفراديا. تحجرت الدموع بمقلتي فلقد خبرت تعذيبهم لأبي حتى ردوه إلينا جثة مشوهة بالكاد تعرفت أمي على ملامحه..كنا صغاراً وقتها وهددوها بنا، لاذت بنا وعبرت إلى غزة ولملمت شتاتنا مرة أخرى.

دعوت ربي أن يرزقه موتا رحيما، أكاد اسمع صرخاته وهي تشق سمائي، مختلطة بأنات آخرين لا ذنب لهم سوى إنهم يبحثون عن وطنهم ويمجدونه في أشعارهم وحكاياتهم وقلوبهم. لم تطاوعني نفسي في استجداء عطف عدو لي وله رغم أن الفرصة سانحة مادمت سأضمن له رحيله ورحيلي دون شرط وانسى حق العودة..الشروط قاسية....الخروج هنا يشبه طلوع الروح...هم لا يفقهون شيئا ولا يعلمون أن دماء عائلتي سالت هنا وتشربتها الأرض حتى ربت واخضرت بآخرين رحماء فيما بينهم وأشداء عليهم.....ظللت قابعة بمكاني انتظره بشرفتي عله يعود يوما..لما عاد تلقفته يدى بحنو أم لم تذق طعم الأمومة قبلا...ولففته بعلم بلادي...كان جسده يقطر دما وصديقه يكفنه بالأبيض الشاهق...رأيت دموع صديقه تغسل كفنه المضمخ بالدم، صرختي محبوسة بصدري، لم اشعر بالراحة إلا حين ناديت:

واقدساه !

في كل صباح أذهب إلى قبره، أتحدث إليه والدموع تغسل وجهي، من بعيد رأيت جرافة تهرول نحوي والسائق يلوح لي بعربية ركيكة ويأمرني بالابتعاد، يربض على مقربة مني بيت مدهون بلون الزيتون الأخضر، تجلس أمامه امرأة في العقد السابع، النمش والتجاعيد يفترشان وجهها الأسمر، مازال يصرخ فينا بالابتعاد، بعد قليل وجدت أخريات ينضممن إلي، افترشن الأرض وبأيديهن سعف النخيل، لا يتحركن من أماكنهن في إصرار غريب، الجرافة سكنت عند أقدامنا، نزل السائق يسب ويلعن وهمّ بلطم جارتي العجوز على وجهها، دفعته بقوة حتى ارتبك واصطدم بقطع الحجارة المتناثرة، أتى زميله وبيده مدفع رشاش وجهّه بثبات لصدورنا المشرعة دوما نحو الموت، لم نجفل ولم نتقهقر بل ازددنا ثباتا ونحن نتقدم نحوه، نلمح الخوف الذي يغالبه في عينيه هو وزميله، نزأر بقوة في نبل ووقار:

واقدساه.

مازال السائق يتقهقر مع زميله والخيبات واللعنات تطاردهما ، يتوعد ويهدد ويرعد بالسباب ونحن مازلنا نلوذ ببعضنا البعض، لا نتحرك، فقلبي معلق بقبر من أحب، ابتسم والجميع ينشد في ثبات: واقدساه